

جناح الذل

كثيرة هي العبارات التي تمر بالمرء في حياته قراءةً أو سماعًا، بعضها يفقده الذهن ويتشرد من الذاكرة فور مروره عليها .. بعض الكلمات كأنها زائر دخل بالخطأ واعتذر أنه يريد السلام ويمضي فقط ..

وبعض الكلمات تحفر حروفها في الذهن .. بل لربما مضى الزمن وقد ترعرعت حولها ذرية من العبارات المتولدة عنها .. هل للعبارات تاريخ صلاحية؟ أم أن أذهاننا كولونيالية، تؤوي وتقمع وتطرد، دون قوانين واضحة؟

وثمة كلمة في كتاب الله مرت بي ولأول وهلة سمعتها وهي تحمل سؤالاً في نفسها ..

وهي استعارة قرآنية خلبت اهتمامي .. ومكثت أفكر فيها زمناً:

ما مراد الله سبحانه بهذا التركيب؟

وماذا أراد الله أن يوحي من المعاني من جزء العبارة الأول
لجزء العبارة الثاني؟

هذه الاستعارة القرآنية هي التي اخترت أن تكون عنوان هذا
الفصل، وهي قول الله: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء: ٢٤].
نحن نعرف أن (الجناح) جزء حسي في الطيور ركبته الله فيها
تخفق به وتتنقل .. ونرفع رؤوسنا في ميادين السماء فنرى هذه
الطيور تميل بأجنحتها .. فتشرها وتصفق بها .. بل هذه الصورة
ذاتها ذكرها القرآن في موضع آخر ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّاتٍ
وَيَقِظْنَ﴾ [الملك: ١٩].

فوصف الله في هذه الآية أجنحة الطير وهي فوقنا في السماء
إذ تبسط أجنحتها تارة فتصفقها .. وإذا تضرب بأجنحتها جنوبها
تارة أخرى فتقبضها ..

وبذلك على عظمة هذا المشهد من مشاهد حركة أجنحة الطير
أن الله ذكره أيضاً في موضع آخر من القرآن فقال الله: ﴿وَالطَّيْرِ
صَفَّاتٍ﴾ [النور: ٤١].

وأشار الله لهذا المشهد بصورة مجملية في موضع آخر فقال
سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ﴾ [النحل: ٧٩].
حسناً .. هذا مشهد من مشاهد جناح الطير في كتاب الله ..
وهو لا يخفى على القارئ .. لكن السؤال الذي كان يقرع ذهني
بصورة مستمرة هو السؤال التالي:

لماذا أضاف الله هذا (الجناح) الحسي المعروف، إلى (الذل) الذي هو سلوك أخلاقي وجزء منه شعور معنوي؟
ما مغزى هذه الاستعارة؟ وماذا يريد الله سبحانه بهذا التركيب اللغوي؟

ولنجعل التساؤل أكثر تحديدًا: ما هي الدلالة المتطلب إيحائها من لفظ الجناح بما يخدم مفهوم الذل؟
هذا السؤال تأملته كثيرًا .. وما زالت تتكشف لي فيه دلالات فسيحة الأرجاء ..

ثم لما تتبععت تأملات البلاغيين والمفسرين في هذه الاستعارة القرآنية استحوذت علي الدهشة من تفاوتهم في استكشاف العلاقة بين الجناح والذل .. ورأيتهم داروا حول أربع علاقات ..
ومن أول من رأيته من أهل العلم طرح تحليلًا لمكونات هذه الاستعارة وتفسير العلاقة بين الجناح والذل هو العلامة القفال الشاشي الكبير (ت ٣٦٥هـ)، والقفال الشاشي رحمه الله طرح وجهين للعلاقة بين الجناح والذل:

فأما الوجه الأول فهو أنه لما كان الطائر ينشر جناحه ويرفعه إذا أراد التحليق والصعود، ويخفض جناحه إذا أراد الهبوط والنزول، فناسب أن يصوّر التذلل للوالدين بأنه كأنه خفض جناح من الطأطأة والخضوع.

وأما الوجه الثاني فجوهره أن الطائر يحنو على فراخه فيلفهم

بجناحه ويسبله عليهم تعطفًا وشفقة، فناسب أن يصوّر التذلل
للوالدين والرحمة بهم كأنه خفض جناح الطائر على فراخه.
كما يقول القفال:

(في تقريره وجهان: الأول: أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه
للتربية خفض له جناحه، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية
عن حسن التربية، فكأنه قال للولد اكفل والديك بأن تضمهما إلى
نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك. والثاني: أن الطائر إذا أراد
الطيران والارتفاع نشر جناحه، وإذا أراد ترك الطيران وترك
الارتفاع خفض جناحه؛ فصار خفض الجناح كناية عن فعل
التواضع من هذا الوجه)^(١).

هذان هما الوجهان اللذان طرحهما القفال الشاشي رحمه الله
في تفسيره، إلا أن تفسيره هذا مفقود، ولم يقع بأيدينا، رده الله
على أمة محمد، ونحن ننقل عنه هذه المعلومة السابقة بالواسطة،
من خلال ما يقتبسه المفسرون عنه.

وكثيرًا ما يمر بالقارئ في كتب التفسير قولهم «قال القفال»،

(١) انظر نقل المفسرين هذا التحليل عن القفال الشاشي في: الرازي، مفاتيح الغيب، دار
الفكر (١٩٢/٢٠)؛ أبو حيان، البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وزملائه،
دار الكتب العلمية، ص(٢٥/٦)؛ ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق عادل
عبد الموجود وزملائه، دار الكتب العلمية، ص(٢٥٩/١٢). ولست متأكدًا هل
أبو حيان وابن عادل ينقلان عن تفسير القفال مباشرة، أم ينقلان عن الرازي عنه؟
والأشبه الثاني والله أعلم.

وهذا الذي يرد في كتب التفسير هو القفال الشاشي الكبير، وأما إذا قيل «قال القفال» في كتب الفقه الشافعي الوسيط كالنهاية والوسيط والمهذب ونحوها فالمقصود به القفال المروزي الصغير (ت ٤١٧هـ)، وهو نجم الطريقة الخراسانية في الفقه الشافعي، وكلاهما شافعيان، وكلاهما يكنى أبا بكر، ومن هنا ينشأ الخلط بينهما، ونبّه على هذا الفرق بين القفالين أبو زكريا النووي رحمه الله^(١).

وقد رأيت أطروحات أكاديمية في جمع تفسير القفال الشاشي الكبير من خلال النقولات المتناثرة عنه في كتب التفسير.

وفي القرن السابع رأيت الأديب ضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) يطرح تحليلاً ثالثاً للعلاقة بين الجناح والذل، ففي كتابه «المثل السائر» اعتبر أن الطائر إذا أدركه الإعياء والوهن خفض جناحه، فصوّر التذلل للوالدين بهذه الصورة، كما يقول ابن الأثير: (فإن الجناح للذل مناسب، وذاك أن الطائر إذا وهن أو تعب بسط جناحه، وخفضه وألقى نفسه على الأرض)^(٢).

وبصراحة فإن هذا الكتاب لابن الأثير ثري بتحليلات تطبيقية بلغة في غاية العذوبة لكيفية صناعة الجمال البياني.

(١) النووي، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق عادل مرشد وزميله، دار الرسالة العالمية، ص (٤٤٢).

(٢) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وزميله، دار نهضة مصر، ص (١٥٣/٢).

وأما العالم المتفنن الشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ) فقد أشار إلى وجه رابع، وهو أنه لما كان الطائر يحلق ويطير شامخاً، فإذا فاجأه الجارح والبازي شلّه الذعر وأعياء الطيران ولصق بالأرض وخفض جناحيه كالمطرق الذليل، فناسب أن يصوّر التذلل للوالدين كأنه خفض جناح الطائر المستسلم المطرق، كما يقول الشهاب: (وأيضاً: هو إذا رأى جارحاً يخافه لصق بالأرض، وألصق جناحيه، وهي غاية خوفه وتذلّله)^(١).

هذه أربع استكشافات لمغزى الاستعارة القرآنية (جناح الذل) .. ذكر اثنتين منها القفال الشاشي وذكر الآخرين الضياء ابن الأثير والشهاب الخفاجي .. وثلاثتهم في علوم العربية بمنزلة العُرر والحجول.

وحينما اطلعت أول مرة على هذه التحليلات الأربع لوجه الصلة بين الجناح والذل في هذه الاستعارة القرآنية مكثت زمناً تداهمني المقارنة بينها كلما ارتطمت بموقف تسح فيه الكهولة عبراتها على موقف عقوق ..

حينما أرى شاباً عليه سيماء الاستقامة لكنه يجادل والده بمنطق الند ويستظهر عليه الحجة تحاصرني مجدداً هذه الوجوه الأربعة في هذه الاستعارة القرآنية ..

(١) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرازي على تفسير البيضاوي، دار صادر، ص (٢٤/٦).

حتى ربما خرجت من عالم الموقف المحيط بي وسرحت في
عالم التأملات ..

وأبقى أردد في ذهني:

هل هذا خفض جناح الذل كما يخفض الطير جناحه للهبوط؟

هل هذا خفض جناح الذل كما يسبل الطير جناحه لفراخه

حنوا عليهم؟

أهذا خفض الجناح كما يخفض الطير جناحه من الوهن؟

هل هذا الإطراق الذي يريده الله أمام الوالدين كما يطرق

الطير استسلاماً أمام البازي؟

وهكذا أعيد قراءة المشهد على ضوء كل التحليلات البلاغية

التي طالعتها لآية ﴿وَأَخْفَضَ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ ..

هل كنت أتفطر من الفارق بين البر الشاهق في الآية وبين

منحدرات العقوق في حياتنا الاجتماعية؟

أم تراني كنت أقارن بين هذه التحليلات أبحث عن الراجع

منها على ضوء الواقع؟

أم تراني كنت أبحث عن أكبر قدر من التحليلات البيانية

تجوب أقصى ما يمكن من الجغرافيا الدلالية لهذه الاستعارة التي

خلبت اهتمامي؟

لم يقف إبهار هذه الآية لي عند هذا الأفق .. بل تكشف لي

فيها أفلاك معنوية جديدة أيضاً ..

فقد ذكر أصحاب علم القراءات أن كلمة «الذُل» في هذه الآية أنزلها الله بقراءتين .. بضم الذال «الذُل» وهي القراءة المشهورة التي نقرأ بها .. ولكن ثمة قراءة أخرى لعلها أشد دلالة على التذلل منها وهي قراءة كسر الذال «الذُل» .. وما الفرق بينهما؟ يقول ابو الفتح ابن جني أثناء توجيهه القراءتين:

(ومن ذلك قراءة ابن عباس وعروة بن الزبير في جماعة غيرهما «جناح الذُل»، قال أبو الفتح: «الذُل» في الدابة ضد الصعوبة، و«الذُل» للإنسان وهو ضد العز، وكأنهم اختاروا للفصل بينهما الضمة للإنسان والكسرة للدابة)^(١).

فانظر بالله عليك في هذه القراءة الأخرى التي بالكسر كيف أراد الله فيها أن نكون في التذلل للوالدين كما تكون الدابة ذليلة منقادة مستكينة مطاوعة لراعيتها ..

فإذا ضمنت الإيحاءات البلاغية لكلمة (خفض الجناح) وأضفتها لـ(الذُل) بالكسر الذي يكون للدابة .. انفتحت لمتدبر القرآن أقصى ما يمكن من معاني الإذعان .. وأن يكون الابن هش العنان لأبويه ..

ولست في حاجة للتذكير أن الاتجاه من أهل العلم الذي ينكر المجاز له مسار مختلف في قراءة هذا التركيب وأنهم يحملون

(١) ابن جني، المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي ناصف وزميله، نشرة لجنة إحياء التراث الإسلامي، ص(١٨/٢).

الجناح على الحقيقة، ولهم كلام خاص في خصوص هذه الآية^(١).
كنت مرةً أراجع بعض مسائل (فقه الحسبة)، وأحكام (النهي
عن المنكر)، ووجدت بعض أهل العلم استشكل مسألة وقوع الأب
في المنكر، وهل ينكر عليه ابنه؟ ومنشأ الإشكال أن النفوس تشعر
بأن من ينهاها عن المنكر أنه إنما يخاطبها بفوقية ..

فالإمام أحمد نقل عنه ابن مفلح في الآداب الشرعية في
الفصل المعقود لهذه المسألة أنه قال: «ليس الأب كالأجنبي»،
والغزالي في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإحياء
قسم الحسبة لخمس مراتب، وجعل اثنتان منها تليق من الابن
للوالد وهما مرتبة التعريف ومرتبة الوعظ اللطيف، والبقية لا تليق،
وذكر السنامي الحنفي (ت ٧٤٣هـ) في كتابه «نصاب الاحتساب»
اعتبارات أخرى ..

مررت بهذه المعالجات .. وكنت أتأمل الراجح فيها ..
ولكنني بكل صراحة لم أستطع أن أتجاوز عبارة لإمام دار الهجرة
مالك بن أنس رحمه الله .. حيث علّق على هذه المسألة تعليقاً
بديعاً لم ينسَ فيه تلك الاستعارة التي أذهلتني .. يقول القرافي:
(المسألة الأولى: أن الوالدين يؤمران بالمعروف ويُنهان عن

(١) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ص(٢٠/٤٦٥)؛ ابن القيم، مختصر الصواعق،
دار الكتب العلمية، ص(٢٤٢)؛ الشنقيطي، منع جواز المجاز في المنزل للتعبّد
والإعجاز، مطبوع مع دفع إيهام الاضطراب للمؤلف، إشراف بكر أبو زيد، نشرة
مجمع الفقه، ص(٣٠).

المنكر، قال مالك: ويخفض لهما في ذلك جناح الذل من الرحمة^(١).

حين قرأت تعقيب الإمام مالك في هذا الجواب، شعرت أنه أجب بمشروعية النهي عن المنكر إذا وقع فيه الأب، لكن الإمام مالك تذكر هذه الآية العظيمة، ولم تغب عن ذهنه هذه الاستعارة التي تضمنتها والتي تهز قلب المؤمن، فعقب فوراً بتهذيب أسلوب الإنكار، وقال: «ويخفض لهما في ذلك جناح الذل» ..

بل سأكاشف القارئ أنني حين قرأت تعقيب الإمام مالك هذا قلت في نفسي: هل يا ترى كان مالك يفكر كثيراً في هذه الاستعارة القرآنية؟ هل كان مندهشاً من جلاله جماليات البر فيها؟

بل إنني كنت أقنع نفسي وأقول مؤكداً أن الإمام مالك ما استحضر هذه الاستعارة البلاغية القرآنية في ثنايا نقاش فقهي دقيق إلا أنه كان مبهوراً بإيحاءاتها الدلالية .. لابد أن مالك كان يتساءل عن مغزى العلاقة بين (خفض الجناح) و(الذل) .. وهكذا لعلني كنت أبحث عن شرعية تفكير ..

ولا يقتصر استحضار السلف لنصوص التذلل للأبوين في ثنايا الفتاوى الفقهية .. بل إن أئمة السلف كان يدققون في سلوكيات البر بسمو استثنائي ..

في واحدة من أعجب القصص التي مرت بي أن التابعي

(١) القرافي، الفروق، (ف ٢٧٠).

الجليل ميمون بن مهران الذي روى عن أبي هريرة وعائشة وغيرهم،
رزقه الله بآبن عالم، وهو الحافظ عمرو بن ميمون بن مهران
(ت ١٤٥هـ)، وهو من رجال الصحيحين، وكان هذا الابن باراً
بأبيه، وقد جاء في ترجمته:

(قال الحلبي: حدثني عمرو بن ميمون بن مهران، قال:
خرجت بأبي أقوده في بعض سكك البصرة، فمررت بجدول، فلم
يستطع الشيخ يتخطاه، فاضطجعت له، فمر عليّ ظهري^(١)).

فانظر إلى هذه الصورة الرفيعة من خفض جناح الذل ..
فحين جاء الأب الذي أرعدت السنون مشيته فما عاد يقوى أن يعبر
جدول ماء .. تحول الابن إلى جسر يغمر نفسه في الطمي كي
يخطو والده فوقه بقدميه ..

يا الله .. عليك رحمت ربي يا عمرو بن ميمون .. أكنت
محظوظاً أن لم تر شاباً يستكثر أن يدفع عربة والده المُقعد تحت
سياط الظهيرة أمام مبنى الجوازات؟!

يا شيخنا عمرو بن ميمون .. أكانت فطرتك ندية فلم يعكرها
خبر شاب يستثقل مرافقة والده في مستشفى .. ينظر لوالده المغطى
نصفه والمكشوف نصفه الأعلى لأنابيب الحياة .. ويسارق النظر
لرسائل أصحابه في الجوال تستحثه للنزهة وتراوده بصور ربيعية ..
فيتكلف الأعذار ليركب الريح مع أصحابه في مسامرات الضياع؟!

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق محب الدين العمروي، دار الفكر، ص(٦١/٣٥٢).

إيه .. يا عمرو بن ميمون .. اضطجعت في جدول الماء فوق الطين ووالدك يدوسك بقدميه ليعبر الجدول .. أكنت يا عمرو بن ميمون أحد أنواع البلاغة البشرية التي يتحدث عنها قول الله ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ؟﴾

ومن أغبى الأوهام المنتشرة اليوم توهم أن «بر الوالدين» مربوط بكمية الخدمات الحسية المادية .. واحرقته من هذا الوهم .. يبدو أن عصر الماديات في أحسن أحواله لا ينتج إلا تدينًا ماديًا أيضًا ..!

لا .. بر الوالدين ليس مقصورًا على الخدمات المادية .. بر الوالدين هو «خفض جناح الذل» لهما قبل كل شيء .. البر المعنوي يفوق قيمة البر المادي بقدر ما تفوق الوجاهة قيمة الخبزة .. ألا ترى الرجل الحر يتضور جوعًا وينشلّ لسانه قبل أن يكتب معروض استجداء؟!

ألا ترى الحرة تجوع ولا تأكل بثديها .. إنها القيم المعنوية التي قال عنها دنقل يومًا: «هي أشياء لا تشتري» ..

هذه النفحات المعنوية ليست إلا بعض أنفاس بيانية من دلالات «واخفض لهما جناح الذل» ..

الإمام الحافظ عبد الله بن عون (ت ١٥١هـ) من كبار أتباع التابعين، فقد أدرك طبقة من تأخرت وفاتهم من الصحابة لكن لم

يسمع منهم، وهو إمام أهل البصرة في زمانه، وشيخ الأئمة المشاهير الكبار كشعبة بن الحجاج وعبد الله بن المبارك.

وبالنسبة لي فمن أكثر المواضع التي كانت تبهرني في منزلة ابن عون أن الإمام مسلم في مقدمته الشهيرة لصحيحه لما ذكر «أئمة السلف ممن يستعمل الأخبار، ويتفقد صحة الأسانيد وسقمها»، ثم أراد التمثيل لذلك، ذكر ستة نماذج من أئمة الحديث، كان أحدهم ابن عون! ومن له صلة بعلوم السنة يدرك دلالات هذا التمثيل ..

والمراد أن الحافظ عبد الله بن عون هذا ممن امتزج بروحه دلالات قول الله ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ﴾ .. ووقف على دقائق تجليات هذه الآية بحساسية شريفة .. حيث لاحظ رحمه الله أن مما يدخل في خفض جناح الذل للوالدين «مراعاة مستوى الصوت»!

وهذه هي القيم المعنوية الراقية لمعنى بر الوالدين حقاً .. فقد جاء في ترجمته رحمه الله: (عن عبدالله بن عون: أنه نادته أمه فأجابها، فعلا صوته صوتها؛ فأعتق رقبتي^(١)) ..

لعلك تتذكر الآن أن الله في كتابه جعل عتق الرقبة من الكفارات في المناهي العظيمة، كقتل الخطأ والظهار والوطء في نهار رمضان ونحوها، فانظر كيف لما صار صوت ابن عون أعلى من صوت أمه .. وهو إنما رفع صوته ليستجيب لندائها فقط ..

(١) أبو نعيم، حلية الأولياء، تحقيق سامي جاهين، دار الحديث، ص(٣١٨/٢).

ولم يكن رفع صوته جدالاً أو معارضةً .. ومع ذلك حاسب هذا الإمام العظيم نفسه .. وكفر عن أمرٍ لا يعده أكثر الناس إلا سلوكاً طبعياً .. ومع ذلك كله أعتق هذا الإمام رقبتين تكفيراً عن هذا العمل!

واغوثاه .. من شاب يصرخ من غرفته في الدور الثاني على والدته مستبظاً غداءه! ويتذرع بأنه مرهق ومتعب «وما هو مروّق»! وكيف لا تتفطر الأكباد من شاب يتفنن في قرع أبواق سيارته يستعجل والدته الخروج من المنزل ليذهب بها لمشوار التمسّته منه! وترى الوالدة المسكينة تتقافز تجمع أغراضها مشوشة الذهن تحت ضغط منبهات سيارته!

وابن عون يعتق رقبتين لأن صوته أرفع من صوتها وهو يستجيب لندائها! أي فارق فلكي بيننا وبين القوم؟!!

وجاء هذا المعنى أيضاً عن التابعي الجليل محمد بن سيرين (ت ١١٠هـ) .. حيث كان يطبق مفهوم «خفض جناح الذل» في مخاطبة والدته .. فكان (إذا كلم أمه كلمها كالمصني إليها بالشيء)^(١)، و(إذا كان عند أمه، ورآه رجل لا يعرفه، ظن أن به مرضاً من خفضه كلامه عندها)^(٢).

ومن تجليات «خفض جناح الذل» كمال الأدب في طريقة

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق محب الدين العمروي، دار الفكر، ص(٥٣/٢١٦).

(٢) المصدر السابق، ص(٥٣/٢١٧).

النظر للوالدين .. وخضوع العيون للعيون .. وهذا من عيون تفسيرات السلف لهذه الاستعارة القرآنية .. فقد روي عن عطاء وعروة من ضمن تفسيرهم لهذه الآية أنهما قالا: (ولا تحدّ بصرك إليهما، إجلالاً وتعظيماً) خرّجه ابن أبي حاتم وغيره عنهما.

وجاء هذا المعنى عن عائشة مرفوعاً: (ما بر أباه من حدّ إليه الطرف) لكنه معلول بصالح بن موسى.

وقد أشار المناوي إشارة بديعة لهذا المستوى من بر الوالدين بنمط نظر العيون للعيون .. إذ يقول المناوي في فيض القدير: (العقوق كما يكون بالقول والفعل؛ يكون بمجرد اللَّحظ المُشعر بالغضب)^(١) وهو داخل في عموم آية خفض جناح الذل .. لأن النظر شزراً ليس إلا دخاناً خارجياً للهيبة استعلاء يُمور في الباطن ..

أي مسافة تربطنا بقوم يدققون في مجرد الخشونة البصرية للوالدين .. وفيما من يتفنن في مقطوعات التذمر لوالدته لأنه فتح دولابه ولم يجد ملابسه قد غسلت وكويت في التوقيت المطلوب!

وهذه المشاهد المبهرة لأئمة السلف في فهم دقائق الآفاق الدلالية لخفض جناح الذل مرتبطة ارتباطاً مباشراً بعمق علم السلف بمنازل العبادات التي يحبّها الله .. وقد كان للإمام التابعي الجليل محمد بن المنكدر شقيقُ اسمه عمر بن المنكدر .. ومحمد اشتهر بالعلم والرواية فقد روى عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس

(١) المناوي، فيض القدير، تحقيق أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، ص(٥٥١/٥).

وغيرهم، بينما اشتهر عمر بالعبادة والتسكك وغلبت عليه .. وروى الإمام ابن سعد في طبقاته بإسناده قال: (قال محمد بن المنكدر: بات عمر يصلي، وبت أغمرُ رجلي أمي، وما أحب أن ليلتي بليته)^(١).

هذا هو الفقه الدقيق في مراتب الأعمال .. فقد بقي الإمام ابن المنكدر عامة ليله يدلك رجلي أمه .. ويخفف إعياءها .. ويطيب خاطرها .. ويؤانس وحدتها .. ويتقرب إلى الله بذلك .. وأخوه عمر صاف قدميه بين يدي الله يصلي الليل .. ومع ذلك ما ترك محمد ابن المنكدر رجلي أمه بل صرح أنه يعتقد أن بر الوالدين أجل في ميزان الله من التهجد ..

ولنكن صرحاء مع أنفسنا ونعترف أن هذه المقارنة بين عمل محمد وعمر ابني المنكدر هي مجرد مقارنة تاريخية لا صلة لنا بها .. أنا أخجل أصلاً من أن أطرح هذه المقارنة باعتبارها مرتبطة بواقعنا .. فهؤلاء يتنافسون بين إحياء الليل في التهجد أم إحياء الليل في بر الوالدين .. وكلاهما بالنسبة لنا اليوم خارج النمط المألوف في حياتنا الاجتماعية أصلاً إلا من رحم الله!

وتمر بالمرء قرارات كثيرة في حياته .. في حياته العلمية والعملية .. تحديد تخصص دراسي، قبول عرض وظيفي، شراء مسكن أو مركب، الخ .. وقد يكون أحد الوالدين رافضاً للقرار

(١) ابن سعد الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عطا، دار الكتب العلمية، ص(٣٥٨/٥).

.. فيشعر الابن أن أباه أو أمه ليس لهما اطلاع كافٍ يخولهما فهم الأمر ورفضه .. فيدير مقود شأنه باتجاه ما قرر ولا يفكر في استرضاء والديه أولاً .. وغالب هذه القرارات يُنزع منها البركة .. والعاقل الحصيف هو الذي يسترضي والديه قبل أن يقدم .. فإن لم يرضيا فمن يتق الله يجعل له مخرجا .. ولا أقبح من الاستخفاف باسترضاء الوالدين .. والشعور أنهما لا يدركان ما يدرك الابن .. وإذا تداول الناس مسألة «أثر التقوى على العلم» فإنهم يذكرون عبارة الإمام أحمد الشهيرة التي رواها المروزي أن أحمد قال: (عبد الوهاب الوراق رجل صالح، مثله يوفق لإصابة الحق) وعبد الوهاب هذا له ابن اسمه الحسن، وهو أحد المقرئين من تلاميذ الدوري، وكان ابناً باراً، وحدث له مع أبيه قصة، يحدث الحسن عن نفسه قائلاً:

(كنت قد اعتزمت إلى الخروج إلى «سر من رأى» في أيام المتوكل، فبلغه -أي أباه- ذلك، فقال لي: يا حسن ما هذا الذي بلغني عنك؟ فقلت: يا أبت، ما أريد بذلك إلا التجارة، فقال لي: إنك إن خرجت لم أكلمك أبداً، قال: فلم أخرج وأطعته، فجلست، فرزقني الله بعد ذلك، فأكثرَ وله الحمد^(١).

فانظر كيف أثمر خفض جناح الذل للوالدين في قرار تجاري البركة في الرزق، فوجد في طاعة والده بركة في ماله، كان

(١) الخطيب، تاريخ بغداد، تحقيق بشار معروف، دار الغرب، ص(٢٨٤/١٢).

سيفقدوها لو صغّر خدّه وشمخ برأيه الشخصي ..

إظهار الاحترام لرأي الأبوين، وإجلالهما، وإظهار الاستفادة من خبرتهما، والصدور عن توجيههما: هي جنة البر التي من لم يدخلها لن يعرف ماذا تعني هذه الاستعارة القرآنية ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ ..

وكم ترى في الشبان من يسعى لإظهار جهل والديه وأنهما لا يفهمان الجيل الجديد بل ربما رأيت الشاب يستعرض بمصطلحات شبابية كالمستعلي على والده أنه لا يفهمها ..

وكم ترى في الفتيات من إذا دخلت المرحلة الثانوية والجامعة صارت تلمز ذوق والدتها .. وتظهر لها أن فلانة من قريباتها أحسن ذوقًا منها .. تظن أن هذه مجرد تقييمات عابرة .. ولا تعرف جرح الكبرياء الذي تغرزه في خاصرة والدتها بلا مبالاة .. أبعد كل هذه السنوات التي طافت بها والدتك الأسواق لتجعلك شامة في عيون قريناتك .. تأتين اليوم وترمين العبارات اللاذعة عن ذوق والدتك؟!!

وبرغم كل هذه الصور البائسة اليوم في عدم التفطن لدقائق قول الله: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ فما زال في الأمة خير ولله والحمد .. وما زالت صور من البر يتناقلها الناس اليوم سرّجًا يستضاء بها في سماء المادية الكالحة في هذا العصر ..

المجرات سلاله اليقين

في منتصف القرن العشرين أطبقت على انجلترا شهرة عالم الفلك والفيزياء الانجليزي «جيمس جينز» (ت ١٩٤٦م)، وقد تنقل جينز في حياته الأكاديمية بين جامعة كامبردج وجامعة برنستون، وكان بروفيسور (الرياضيات التطبيقية) في جامعة برنستون. وكان له إسهامات رئيسية في حقل الفيزياء والفلك، وخصوصًا في تطوير بعض المسائل في مجال الأشعة (radiation)، وتخلّق وتطور النجوم (stellar evolution)، وانتقد نظرية لابلاس في تكون النظام الشمسي واقترح فرضية بديلة، ونحو ذلك.

وسميت باسم جينز عدد من المكتشفات العلمية، منها قانون فيزيائي يسمى (قانون رايلي-جينز) (Jeans law-Rayleigh) حيث ساهم جينز في تطويره وهو قانون يصف الإشعاعات الطيفية في الموجات الكهرومغناطيسية.

ومن المكتشفات التي سميت باسمه (كتلة جينز) (Jeans mass)

وهي نظرية تتعلق بنشأة النجوم، حيث تمثل الحد الأدنى لكتلة السحابة الغازية التي ينشأ عن انكماشها نجم جديد.

وكذلك فوهة قمرية (lunar crater) اكتشفت على سطح القمر سميت باسمه (فوهة جينز)، وكذلك فوهة مريخية (Martin crater) اكتشفت على سطح كوكب المريخ سميت باسمه أيضًا.

وأي قارئ لحياة «جيمس جينز» العلمية يلاحظ فوراً أنه كان يقف على هذه التخوم بين الكوسمولوجيا (الكونيات) والفيزياء؛ بسبب التحام هذين العلمين في العصور الأخيرة، فكثير من الفلكيين فيزيائيون، وكثير من الفيزيائيين فلكيون، ولذلك يقول الفلكي الأمريكي «لويد متر» (ت ٢٠٠٤م) في كتابه قصة الفيزياء:

(الفلك أصبح اليوم أكثر من أي وقت مضى فرعاً من الفيزياء، وبكفينا لتأكيد ذلك أن نلاحظ العلاقات القائمة بين فيزياء الطاقة العالية والكونيات (الكوسمولوجيا)، أو بين تطور النجوم والفيزياء النووية، أو تلك العلاقات بين بنية المجرات وتحريك السوائل، فهي تظهر مدى الرابطة المتينة بين فرعي المعرفة هذين، بل إن قصة الفيزياء تبدأ بعض نواحيها بالفلك اليوناني)^(١).

وليس من العسير إدراك وتفسير سبب هذا التداخل والاشتراك بين مباحث الفيزياء والفلك والتي يشير إليها متر وزميله في النص

(١) لويد متر وجيفرسون ويفر، قصة الفيزياء، ترجمة طاهر تربدار وزميله، دار طلاس، ص (٢٥).

السابق، ذلك أن الفلك يعنى بالأجرام السماوية، والفيزياء تدرس الحركة وسلوك المادة وطاقاتها خلال الزمن والمكان، ومن الطبيعي أن تدرس الفيزياء حركة وسلوكيات هذه الأجرام، ومن هاهنا يجد الفيزيائي نفسه أحياناً فلكياً، ويجد الفلكي نفسه أحياناً فيزيائياً.

ولم يكتف «جيمس جينز» بكتابة الأطروحات المتخصصة، بل كان ينتمي إلى قطاع من المتخصصين يؤمنون بأهمية تبسيط (العلوم الطبيعية) للقارئ العام، كما كتب الفيزيائي البريطاني (ستيفن هوكينغ) مثلاً كتابه المشهور (موجز تاريخ الزمن: من الانفجار الكبير إلى الثقوب السوداء) والذي بسّط فيه أسس الكوسمولوجيا (الكونيات)، وبيعت منه أكثر من عشرة ملايين نسخة، وترجم للغات العالمية.

ومثل هذا النمط من المؤلفات التي تخاطب القارئ العام تخلق للمؤلف شهرة في الإعلام باعتباره شارح ومفسر للثورات العلمية في زمنه، وقد لعب «جيمس جينز» هذا الدور فعلاً، وخصوصاً في حقل الكوسمولوجيا (الكونيات) وهو حقل شديد الجاذبية والإبهار للقارئ العام.

وينتمي «جيمس جينز» للتيار الذي يعطي الفلسفة (موقعاً ذليلاً) بالنسبة للعلوم الطبيعية، وأن الفلسفة ذات هوية تبعية باعتبار أن العلوم الطبيعية تكشف وتبتكر وتخترع، والفلسفة تعلق لاحقاً فقط على ما تم اكتشافه، فالفلسفة لدى هذا التيار، مجرد «تفسيرات» تلاحق تطورات العلوم، كما يقول جينز مثلاً:

(الفلسفة في أية فترة زمنية، مرتبطة دومًا، وبشكل كبير؛ مع العلم في نفس هذه الفترة، لذلك فإن أي تغيير رئيسي في العلم ينتج ردود فعل في الفلسفة)^(١).

وهذا الرأي التبخيسي للفلسفة في مقابل إجلال العلوم الطبيعية، والذي يتبناه الفيزيائي/الفلكي «جيمس جينز»، ليس رأيًا مبتكرًا له، بل هو اتجاه معروف في الفكر الغربي، ويشيع خصوصًا بين الباحثين في الحقول التجريبية، ويمكن أن نجد اعترافًا بهذا الدور التبعي/التفسيري للفلسفة في التشبيه الذي صاغه رأس الفلسفة الألمانية «هيجل» (ت ١٨٣١م)، حين وصف الفلسفة في نهاية مدخل كتابه عن فلسفة الحق بقوله: (بومة مينرفا لا تنشر أجنحتها وتطير إلا حين يخيم المساء)^(٢).

ومينرفا هي آلهة الحكمة والفلسفة في الأساطير الرومانية، وكان لها بومة، لأن البومة في تصوراتهم رمز للحكمة باعتبار سلوكها الصامت المراقب طوال النهار، واختيارها المواقع غير المأهولة.

ومقصود هيجل بهذا التشبيه أن الفلسفة لا تبدأ في العمل إلا بعد انتهاء الأحداث والأعمال في النهار، فتأتي لاحقًا لتفسر فقط، ومقتضى هذا التشبيه أن الفلسفة ذات (مرتبة تفسيرية) فقط، لا (صانعة للأحداث).

(١) J. Jeans , *Physics and philosophy*, Cambridge, 1943, p. 2

(٢) Hegel , *Philosophy of right*, p. xxi

وهناك شواهد أخرى كثيرة في الفكر الغربي لمن يميل لهذا الاتجاه التقيمي لمكانة الفلسفة في مقابل تعظيم العلوم الطبيعية ونتائجها في الطب والتكنولوجيا ونحوها، وليس هاهنا محل بسط هذه الشواهد.

ولذلك تجد أمريكا -مثلاً- المتفوقة في العلوم والتقنية يقل فيها الفلاسفة، بينما أوروبا التي تراجعت مقابل التفوق الأمريكي يكثر فيها الفلاسفة، حتى أن عالم النفس الأمريكي جرانفيل ستانلي (ت ١٩٢٤م) في مقالته «الفلسفة في الولايات المتحدة» التي نشرها في فصلية (مايند) حين كان يطرح تشخيصاً مبكراً للواقع الفلسفي في أمريكا يقول: (الفلاسفة في أمريكا أندر من الثعابين في النرويج)^(١) لكنه يرجع ذلك لحدثة عمر الولايات المتحدة.

وقد استعرض ستانلي تفسيراً لهذه الظاهرة -أعني محدودية الفلاسفة في أمريكا- مرتبطاً بعمر البلد، ومزاج الأعمال والاستثمار العملي.

وفي تقديري الشخصي أن من أهم كتب جيمس جينز كتابه «الفيزياء والفلسفة» (Physics and philosophy) وهو دراسة مقارنة بين طريقة عمل الفيزيائيين ومنتجاتهم العلمية، وطريقة عمل الفلاسفة ومنتجاتهم التي قدموها، ويحاول جينز في كتابه هذا أن يثبت وجهة نظره تفصيلاً حول تواضع ثمرات الفلسفة مقارنةً بالنتائج

(١) G. Stanley Hall, *Philosophy in the United States*, Mind, p. 95

التي قدمتها لنا الفيزياء، وفي هذا الكتاب مواضع صادمة للقارئ، مثل الموضوع الذي شرح فيه نظرية كانط وحلل جدواها وأنه يرى أنها لم تضيف شيئاً ذا بال، ثم حاول أن ينقل الفلسفة إلى تفكير جديد على ضوء نتائج الفيزياء كمفهوم السببية وحرية الإرادة وغيرها.

وإذا وضع الباحث كتاب جينز هذا في سياقه التاريخي فسيستوعب بالضبط خلفيات هذا الطرح، فكتاب جينز هذا (الفيزياء والفلسفة) وُلِدَ في أيام (ثورة العلوم الطبيعية) وتطور الحياة الاجتماعية بناء على المكتشفات والابتكارات التي تضخها في حياة الناس، وكانت هذه المرحلة أصعب اللحظات التي بدأت تعيش فيها الفلسفة (أزمة الجدوى)، فصار يتساءل كثير من الباحثين في الحقول التجريبية خصوصاً عن (جدوى الفلسفة) ويرون أنها لم تقدم شيئاً؟

ومن أمتع المناقشات التي حاولت دراسة هذه الظاهرة والرد على المخالفين فيها، ورقة الفيلسوف الانجليزي برنارد ويليامز (ت ٢٠٠٣م) وكانت بعنوان «حول بغض وازدراء الفلسفة»، وقد نشرت في مجلة (لندن ريفيو) وقد استفتحها ويليامز بقوله (حيثما وجد موضوع فلسفي وجد من يكرهه ويزدرهه) والرصد المثير الذي عرضه ويليامز هو قوله في مقالته (هذه الأيام، معظم الذين يتخذون هذا الموقف ضد الفلسفة ليسوا متدينين، بل علماء!)^(١).

(١) B. Williams ، *On hating and Despising philosophy*، LRB، 1996، p. 16

وبطبيعة الحال لم يكن ويليامز مسرورًا بهذه الظاهرة، بل خصص هذه الورقة للرد على هذه الاتجاه المستخفّ بالفلسفة بعد ثورة العلوم الطبيعية.

هذه الظاهرة شديدة الشيوع في الفكر الغربي العلمي، أعني ازدراء الفلسفة وتعظيم العلوم الطبيعية، تقودنا إلى التساؤل:

لماذا إذن شاع بين الشباب المثقف العربي، المعجب بالغرب؛ القراءة في «التراث» الفلسفي الغربي، كفلاسفة القرون ١٧-١٨-١٩، والضعف في التكوين العلمي الطبيعي؟

الحقيقة أن هذه الظاهرة تستحق الرصد والتحليل، وسأحاول أن أقدم تفسيرًا لها، ففي تقديري أن هؤلاء الشباب العربي قرؤوا للمفكرين العرب الذين درسوا الفلسفة في الغرب، ولم يقرؤوا لمختصي العلوم الطبيعية من العرب، فنقلهم المفكرون العرب أصحاب التكوين الفلسفي إلى التراث الفلسفي الغربي، وصوروا لهم أن التقدم المادي الغربي كله نتيجة للفلسفة الغربية، وهذا التصوير نتيجة طبيعية لكون هؤلاء المفكرين العرب يسوقون بضاعتهم.

ولذلك وجدنا شبابًا عربيًا يتخرج من كليات الطب والهندسة والعلوم ثم يصرف وقت فراغه في قراءة التراث الفلسفي الغربي (القرون ١٧-١٨-١٩)، بدلًا من أن ينشر الثقافة العلمية الحديثة والمعاصرة في بلده! وهذه ظاهرة مدهشة فعلاً، ومحزنة في نفس الوقت، فالمؤهلون بالعلوم التي يحتاجها مجتمعنا من الجادّين في

القراءة يترك بعضهم ترقية مجتمعنا بتخصصه، ويذهب يحفر في غبار التاريخ الغربي العتيق!

ويمكن للقارئ أن يتابع بعض المقالات الفلسفية في صحفنا المحلية، أو الندوات الفلسفية في محيطنا الخاص؛ وسلاحظ أن الرموز الفلسفية الغربية المتداولة غالبها الساحق ينتمي إلى «الماضي» الفلسفي الغربي، وليس إلى «الراهن» والحديث والمعاصر، وآخر ما توصل إليه العلم!

سلاحظ الراصد للحالة الفلسفية العربية والمحلية خصوصًا - مثلاً- أن الرموز الفكرية الفلسفية المتداولة بينهم هم رموز القرن السادس عشر (مارتين لوتر)، أو رموز القرن السابع عشر (فرانسيس بيكون، ديكارت، توماس هوبز)، أو رموز القرن الثامن عشر (جون لوك، هيوم، روسو، كانط) أو رموز القرن التاسع عشر (بنتام، هيغل، شوبنهاور، كيركيغارد، سبنسر، نيتشة) ونحو هؤلاء، ويعرف القارئ أن التطور العلمي المعاصر تجاوز بمسافات فلكية أفكار وتصورات هؤلاء الفلاسفة الذين عاشوا عصور التخلف التكنولوجي.

ولذلك يمكن القول أن الشباب الذين طلقوا القراءة في العلوم الشرعية، وانصرفوا للقراءة في التراث الفلسفي الغربي؛ أنهم انتقلوا من (تراث) إلى (تراث آخر) فقط، وهم يتخيلون أنهم انتقلوا من الماضي للحداثة!

وإذا كان بعض هؤلاء الشباب يسمي الكتب الشرعية كتبًا

صفراء، فالذي فعله هو أنه انتقل فقط من كتب صفراء شرقية، إلى كتب صفراء غربية! فما زال في عالم الصُّفرة بحسب معاييرهِ!

لكن ما السبب الذي دعا الشباب المثقف العربي للإقبال على كتب الفلسفة العربية والعزوف عن الكتب العلمية العربية؟ ربما يعود السبب إلى مبادرة المفكرين الفلاسفة العرب، وتكاسل المختصين العرب في العلوم الطبيعية عن تبسيط العلوم للقارئ العام، وربما لأن العلوم تحتاج إلى معامل ومختبرات وأجهزة وتمويل للبحث العلمي، بخلاف الفلسفة التي هي (نشاط تأملي ذهني محض) ينهي المؤلف فيه كتابه في غرفته الخاصة، وبسبب تفريط النظم السياسية العربية في تمويل البحث العلمي اتجهت العقول إلى الاشتغال بالفلسفة كتعويض.

على أية حال .. ما سبق كله كان استطرادًا غير مقصودٍ بالأصالة، وإنما جرتنا إليه توجه «جيمس جينز» إلى تبخيس الفلسفة وتعظيم العلم في كتابه (الفيزياء والفلسفة)، فاضطرنا الحديث إلى عرض هذا الاتجاه في الفكر الغربي.

وإنما كان المراد الأساسي من السطور السابقة هو التعريف الموجز فقط بالفيزيائي/ الفلكي «جيمس جينز»؛ تمهيدًا لعرض حوار هام جرى بينه وبين طرف آخر، وهو عالم الرياضيات الهندي (عناية الله المشرقي).

هذا الطرف الآخر في الحوار وهو عناية الله المشرقي (ت ١٩٦٣م) قد عُرف بولعه الغريب بالرياضيات، وأنهى الماجستير

في الرياضيات وعمره (١٩) سنة وحطم الأرقام القياسية السابقة له، وفي نفس العام (١٩٠٧م) وقد أتم التاسعة عشرة من عمره؛ سافر إلى بريطانيا لمواصلة دراساته في الرياضيات في جامعة كامبردج، وأنهى خلال وجوده في كامبردج دراسة عدة تخصصات موازية في اللغات الشرقية والعلوم الطبيعية!، ومكث في كامبردج خمس سنوات إلى العام ١٩١٢م، ثم عاد بعدها إلى الهند.

ولما بلغ عناية الله المشرقي بحر الثلاثين خطرت له فكرة تفسير القرآن على ضوء مكتشفات العلوم الطبيعية، ونفذ الفكرة فعلاً، وأنهى المجلد الأول منه وعمره (٣٦ سنة) في عام ١٩٢٤م، وسماه (التذكرة)، فلفت الأنظار بعمله هذا، وتم ترشيحه لجائزة نوبل، إلا أن لجنة الجائزة اشترطت ترجمة العمل لأحد اللغات الأوربية، فرفض عناية الله الجائزة، وقال: (لا أريد جائزة لا تعترف بلغتي الأوردية!) ورغم أنه درس في كامبردج أصلاً عدة تخصصات، وشأن الترجمة لا يكلفه شيئاً، لكنها أنفة العالم الهندي.

وانخرط عناية الله في المعترك السياسي، وتقلد عدة مناصب حكومية، ثم استقال وأسس حزباً سياسياً اسمه (حركة الخاكسار)، وأنشأ صحيفة أسبوعية باسم (الإصلاح)، وسجن عدة مرات.

وللأسف، لم تكن الصورة مشرقة إلى هذا الحد، فقد كان لدى عناية الله بعض التصورات الخاطئة حول السنة النبوية، ومفهوم اختلاف النبوات في التشريع، ونظرية التفسير الإسلامية،

وغيرها، وللتوسع حول شخصية عناية الله المشرقي ودوره يمكن مراجعة الكتب المتخصصة في ترجمته^(١).

لكن .. دعنا نصل الآن إلى جوهر المراد من هذا التعريف بالشخصيتين، وهما: العالم الفيزيائي/ الفلكي الانجليزي (جيمس جينز)، وعالم الرياضيات الهندي (عناية الله المشرقي).

ففي نفس الفترة التي قدم فيها عناية الله المشرقي إلى كامبردج لمواصلة دراساته في الرياضيات، التقى بجيمس جينز حيث كان جينز يدرّس في الجامعة، وتعرف عليه، وقد روى عناية الله المشرقي قصة مذهشة وقعت له مع جينز، وقد نشرت هذه القصة في مجلة (نقوش) الباكستانية، في عددها الخاص المكرس لسيرة عناية الله المشرقي، ثم نقلها عن المجلة المذكورة المفكر الهندي (وحيد الدين خان) في كتابه الذي ترجم للعربية بعنوان (الاسلام يتحدى: مدخل علمي إلى الإيمان)، وأصل الكتاب في النسخة الانجليزية بعنوان (الله يتجلّى: أدلة الله في الطبيعة والعلم) وذكر في مقدمته أن هذا الاسم (الله يتجلّى) مأخوذ من آية في الانجيل، ولكن في الترجمة العربية جعل العنوان (الإسلام يتحدى).

حسنًا .. دعنا الآن ننقل هذا الحوار الطويل، يقول وحيد الدين خان في كتابه «الاسلام يتحدى» ما يلي:

(١) alik M., *Allama Inayatullah Mashraqi: A Political Biography*, Oxford University Press, 2000.

(وسوف أختتم هذا الباب بواقعة رواها العالم الهندي المغفور له الدكتور عناية الله المشرقي وهو يقول:

كان ذلك يوم أحدٍ، من أيام سنة ١٩٠٩م، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جيمس جينز-الأستاذ بجامعة كمبردج- ذاهباً إلى الكنيسة، والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوتُ منه، وسلمت عليه، فلم يرد علي، فسلمت عليه مرة أخرى، فسألني: ماذا تريد مني؟

فقلت له: أمرين، يا سيدي! الأول هو: أن شمسيك تحت إبطك رغم شدة المطر!.

فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور.

فقلت له: وأما الأمر الآخر فهو: ما الذي يدفع رجلاً ذائع الصيت في العالم مثلك؛ أن يتوجه إلى الكنيسة؟

وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظةً، ثم قال: عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي.

وعندما وصلت إلى داره في المساء؛ خرجت ليدي جيمس، في تمام الساعة الرابعة بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني، وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي، وكان البروفيسور منهمكاً في أفكاره، وعندما شعر بوجودي سألني: ماذا كان سؤالك؟.

ودون أن ينتظر ردّي بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها، ومداراتها، وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة، حتي إنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله.

وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائماً، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة ثم بدأ يقول: يا عناية الله! عندما ألقى نظرة علي روائع خلق الله، يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول له: «إنك لعظيم!» أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة، أفهمت يا عناية الله خان، لماذا أذهب إلي الكنيسة؟

ويضيف العلامة عناية الله قائلاً: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفاناً في عقلي، وقلت له: يا سيدي لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التي رويتها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من أي كتابي المقدس، فلو سمحتم لي لقراءتها عليكم.

فهز رأسه قائلاً: بكل سرور.

فقرأت عليه الآية التالية: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۖ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

فصرخ السير جيمس قائلاً: ماذا قلت؟ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ

عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ؟ مدهش! وغريب وعجيب جدًا!!، إن الأمر الذي كشفت عنه بعد دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمدًا به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك؛ فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى من عند الله.

ويستطرد السير جيمس جينز قائلًا: لقد كان محمد أميًا، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن «الله» هو الذي أخبره بهذا السر .. مدهش ..! وغريب وعجيب جدًا^(١).

هذا الحوار المثير الذي وقع بين الفيزيائي/الفلكي جيمس جينز، وعالم الرياضيات الهندي عناية الله المشرقي، له دلالات وفيه مواضع لا ينقضي منها العجب.

فهذا الانفعال العميق الذي وقع من «جينز» وهو يتعمق في دراسة المعلومات الفلكية ويستعرضها إلى درجة الارتجاف وانهمار الدموع مشهّد يثير كوامن الإيمان في النفوس البشرية.

وبسبب أن عناية الله كان صغير السن حين التقى بجينز، وانبهر بإيمانه بالله، فقد كان لذلك أثر عجيب في تعميق اليقين بالله في نفس هذا الفتى، حتى اعتُبر جينز ملهمًا له.

وهذا الكون العجيب بمجراته ونجومه وكواكبه وأقماره ومداراته ونظامه دفع البروفيسور جينز إلى البحث عن أقرب دين

(١) وحيد الدين خان، الإسلام يتحدّى: مدخل علمي إلى الإيمان، ترجمة ظفر الإسلام خان، مكتبة الرسالة، ص(٢٠٣)

يعرفه فتمسك النصرانية، فكيف لو تعرف على كتاب الله المحفوظ ورأى ما فيه من عجائب الإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز البلاغي، والإعجاز الروحي.

ثم انظر مع كل هذا الانبهار بعجائب الكون ونظامه، ازداد جينز دهشة حين سمع قول الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وشهد أن القرآن حق! فما أعجب ما يصنعه القرآن في النفوس البشرية!

ومن العجائب في هذا الحوار أن تنظر كيف يجد البروفيسور «جينز» في فطرته البشرية ما يؤيده وهو يناجي الله بالتعظيم ويقول لله «إنك لعظيم»! فكيف لو عرف هدي رسول الله ﷺ في مناجاة الله بأشرف الأذكار والمقامات وقد تظرت قدماء ﷺ؟!

ثم انظر كيف يحكي البروفيسور «جينز» عن السعادة والسكينة التي تغمر نفسه حين يناجي الله بالتعظيم، فكيف لو ذاق سكينة القرآن وغمرته حلاوة التهجد ولذة الخشوع والانطراح بين يدي الله؟!

كل هذه المعاني في تعظيم الله تكشف للبروفيسور «جينز» وهو يتأمل فقط ملكوت السموات والأرض، حتى بلغ أن شهد للقرآن أنه حق، وأن نبوة محمد ﷺ حق، ألا صدق الله سبحانه إذ قال: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

هذه المشاعر التي عصفت بالبروفيسور جينز وهو يتدبر عظمة

ملكوت السموات والأرض، وجمال الفلك، عرضت لكثير من الناس غيره، وسأذكر بعض الشواهد:

فهذا إيمانويل كانط (ت ١٨٠٤م) رمز الفلسفة الألمانية، وفي عمله الثاني في ثلاثيته النقدية المشهورة، استفتح خاتمة الكتاب بهذه العبارة ذات الدلالات المثيرة، حيث يقول كانط في كتابه المشار إليه:

(شيئان اثنان يملآن العقل بإعجاب ومهابة متجددين ومتزايدين، كلما كررنا النظر فيهما: الأفلاك المرصعة بالنجوم فوقنا، والقانون الأخلاقي في داخلنا)^(١).

حين تتأمل في مشاعر كانط هذه التي يرويها عن نفسه، وتستحضر منزلة كانط المركزية في الفلسفة بعامة، والفلسفة الألمانية بخاصة؛ تصل إلى نتيجة خلاصة، وهي انفعال أشد الناس إيغالا في العلوم العقلية بهذه الآيات الكونية الفلكية في السماء .. حسنا .. دعنا نتجاوز هذه الطبقة من أهل العلوم الطبيعية والفلسفية، ولنتأمل في طبقة أرفع منهم وأشرف وأنقى وأزكى وأعلم، وهم سادات العلم والإيمان، وإذا دلفنا إلى هذه الطبقة فلن نستطيع أن نتجاوز قصةً شاهدها الحافظ أبو حفص البزار (ت ٧٤٩هـ) بنفسه، ثم سجلها في كتابه «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية»، الذي تقدمت الإشارة إليه في فصل سابق.

(١) Kant I, *The Critique of Practical Reason*, Bibliotech Press, p. 123

وبالمناسبة فكتاب البزار هذا في تقديري هو أعذب الكتب التي ترجمت لأبي العباس، صحيح أن في ترجمة ابن عبد الهادي وابن كثير توسُّع في نواحٍ ومعلومات معينة، لكن البزار نقل أموراً من دقائق تصرفات ابن تيمية، في ليله ونهاره، لا تجدها عند غيره، وربما يكون السبب في ذلك أن البزار اقترب من ابن تيمية شغفاً بنقل أحواله، وكان ابن تيمية يذنيه منه، كما يقول البزار (وكننت مدة إقامتي بدمشق ملازمه جلّ النهار، وكثيراً من الليل، وكان يذيني منه حتى يجلسني إلى جانبه)^(١). وإني أغبط كل قارئ لم يقرأ بعد الأعلام العلية، لأن متعة تاريخية تنتظره ..

وهذه القصة التي نقلها البزار عن ابن تيمية تتعلق بموضوعنا عن الفلك، حيث يروي الحافظ البزار برنامج ابن تيمية بعد صلاة الفجر مباشرة، فيقول:

(ثم يشرع في الذكر، وكان قد عُرِفَت عادته لا يُكَلِّمه أحد بغير ضرورة بعد صلاة الفجر، فلا يزال في الذكر يُسمع نفسه، وربما يسمع ذكره من إلى جانبه، مع كونه في خلال ذلك يكثر من قلب بصره نحو السماء، هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس ويزول وقت النهي عن الصلاة)^(٢).

(١) البزار، الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ص (٣٨).

(٢) المصدر السابق، ذات الصفحة.

فتأمل كيف كان أبو العباس ابن تيمية يكثر من النظر في ملكوت السموات والأرض بعد صلاة الفجر وهو يذكر الله، يقلب بصره في السماء، لما يتضافر في ذلك من اجتماع أسباب الاستغراق في استحضار العظمة الإلهية، وإنما ورد النهي عن رفع البصر إلى السماء في حال الصلاة كما سبقت الإشارة إليه في فصل سابق، لأنها حال خاصة من الخشوع والإطراق والأدب، وأما في سوى ذلك فلم ينه عنه، بل هو من هدي رسول الله ﷺ، كما كان يقلب وجهه في السماء وهو يلتمس تحويل القبلة ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّيْنَكَ قِبْلَةً رَضْنَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، وذكر الصحابة كثرة رفع النبي صلى الله عليه وآله وجهه إلى السماء، كما في صحيح مسلم (رفع - النبي ﷺ - رأسه إلى السماء، وكان كثيراً مما يرفع رأسه إلى السماء)^(١)، وفي السنن كان رسول الله ﷺ (إذا جلس يتحدث يكثر أن يرفع طرفه إلى السماء)^(٢).

ومن أعظم النماذج في التعامل مع الفلك كمعراج لليقين، والتي تفوق ما ذكرناه عن غير الرسل، موقف خليل الله إبراهيم عليه السلام وما جرى له من أحوال مع الأجرام الفلكية .. وقد نص الله في كتابه أنه أرى إبراهيم «ملكوت السموات والأرض» لتحقيق نتيجة

(١) صحيح مسلم (٢٥٣١).

(٢) سنن أبي داود (٤٨٣٧)، وأعله بعضهم بعننة ابن إسحاق، وهذا غير دقيق، وهذه طريقة المتأخرين في التدليس، فشيخه يعقوب بن عتبة سمع منه، بل نص ابن المديني على عدم تدليس ابن إسحاق أصلاً، فهو محمول على الاتصال، والله أعلم.

واضحة وهي قوله «وليكون من الموقنين» ..

فأي برهان أعظم من هذا البرهان يبين أن الفلك معراج لليقين .. وأن الأجرام السماوية وأحوالها سلالمة يصعد بها القلب إلى مدارات الجزم وخلع الارتيايات .. ﴿وَكَذَلِكَ نُرىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

النظر في ملكوت السموات والأرض .. درب ينتهي بصاحبه إلى جنة اليقين ..

وقد دعانا الله إلى هذا النظر في ملكوت السموات والأرض فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

على أية حال .. من تأمل في قصة الفيزيائي/الفلكي جيمس جينز وشدة انفعاله بعظمة صنع الله وبدائع نظامه في الفلك حتى انهمرت دموعه، وتأمل عبارة كانط حين تحدث عن تزايد الإعجاب والمهابة كلما كرر المرء النظر في السماء المرصعة بالنجوم فوقنا، وتأمل كيف كان الإمام ابن تيمية يقلب بصره في السماء بعد صلاة الفجر حتى تطلع الشمس .. ثم ضم هذه المشاهد كلها إلى قول الله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ أدرك شيئاً من عجائب أسرار القرآن في غرس اليقين في النفوس البشرية !..

وكلما أعاد المرء التدبر والتمعن في العبارة الأخيرة «وليكون من الموقنين» انفتحت له أبواب عظيمة إلى مقام الإحسان، وهو

أرفع مقامات الدين، فوق الإسلام والإيمان، وهو أن تعبد الله
كأنك تراه، يعني من شدة اليقين ..

فإذا رأيت النجوم تتدلى بحبال ضيائها إليك فانتهاز الفرصة
وتسلق بها إلى قمم اليقين ..



للتواصل مع الدار: ص. ب. ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤ - المبيعات والتوزيع: ٢٤١٦١٢٩ - فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨
المنطقة الغربية، تليفون ٠٢/٦١٤٢٩٢٠ - فاكس: ٠٢/٦١٤٢٩٦٠
البريد الإلكتروني daralhadarah@hotmail.com
موقعنا الإلكتروني www.daralhadarah.com.sa
الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

